

الرحيق المختوم

بَحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف

فضيلة الشيخ

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية - الهند

البحث الفائق بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية
التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي العام 1412هـ مكتبة



الرحيق المختوم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

كلمة معالي الشيخ محمد علي الحر كان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشر وأنذر ، ووعده وأوعده ، أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ، وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ ، وتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ونشر سيرته العطرة ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها « كان خلقه القرآن » ، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦ هـ ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي ، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

١ - أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .

٢ - أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل

٣ - أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث .

٤ - أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته ، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .

٥ - أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .

٦ - تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .

٧ - يبدأ قبول البحوث من غرفة ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ ، وينتهي موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧ هـ .

٨ - تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم ، وتضع الأمانة عليه رقما تسلسليا خاصا .

٩ - تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن .

فكان هذا الإعلان حافزا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .

وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات ، وقد بلغ عددها واحدا وسبعين ومائة بحث منها :

٨٤ بحثا باللغة العربية ، ٦٤ بحثا باللغة الأردنية ، ٢١ بحثا باللغة الإنجليزية ، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي :

١ - الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المبار كפורى من الجامعة السلفية بالهند ، مقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي .

٢ - الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد على خان من الجامعة المحلية الإسلامية نيودلهي الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي .

٣ - الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي .

٤ - الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي .

٥ - الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي .

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٥٨ هـ . كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلاً كبيراً، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ.

وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات، وتنفيذاً لذلك هاهي ذى توضع بين يدي القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث، وهو بحث الشيخ صفى الرحمن المباركفوري، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأمين العام

لرابطة العالم الإسلامي

محمد بن علي الحركان

* * *

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيراً .

وبعد، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقد مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامي ، للبحث حول موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام - تنشيطاً للكاتبين ، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية ، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان . فإن السيرة النبوية والأسوة الحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذ لاحظناها بعين الدقة والاعتبار - هي المنبع الوحيد الذي تنفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري .

وإن من سعادتى وحسن حظي أن أساهم في تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته . وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجى في مقالتي هذه : إني قبل أن آخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنباً التطويل الممل والإيجاز الخلل ، ولكنى كثيراً ما رأيت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الوقائع ، أو في تفصيل جزئياتها ، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث . ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجح لدى بعد التحقيق . ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين؛ لأن ذلك يفضى إلى طول غير مطلوب . نعم ا ربما أشسرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة ، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لى الخير فى الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد .

الجمعة المباركة ١٣٩٦/٧/٢٤ هـ - ١٩٧٦/٧/٢٣ م

صفى الرحمن المباركفورى

الجامعة السلفية

بنارس الهند

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها . ونظراً إلى ذلك تقدم فصلاً عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التي بعث فيها محمد ﷺ .

موقع جزيرة العرب :

جزيرة العرب لغة : الصحارى والقفاز ، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطناً لهم .

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقاً الخليج العربي وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوباً بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف فى بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلى فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوا وييسطوا عليها سيظرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً فى جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم . وتلتقى بها براً وبحراً . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة أفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوروبا ، والناحية الشرقية تفتح على أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى . وتقضى إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحراً ، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً .

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم ومركزاً للتبادل التجارية ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب :

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

١ - العرب البائدة : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها .

٢ - العرب العاربة : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قطحان وتسمى بالعرب القحطانية .

٣ - العرب المستعربة : وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية .

أما العرب العاربة - وهى شعب قحطان - فمهداها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها ويطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمهور ، وقضاة ، والسكاسك .

(ب) كهلان ، وأشهر بطونها همدان ، وأتماز ، وطىء ، ومدحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ، والأوس ، والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن وانتشرت فى أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم ؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان و بطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

١ - الأزد - كانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقيا . فساروا ينتقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائياً : عطف ثعلبة بن عمرو بن الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذى قار ، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا :

الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه فى ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر

الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .
ونزل عمران بن عمرو في عمان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عمان قبائل لفر
الأزد بتهامة ، وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة . نسبة
إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام .

٢ - نخم و جدام - وكان في اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

٣ - بنو طيء - ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى
وأقاموا هناك حتى عرف الجبلان بجبلى طيء .

٤ - كندة : نزلوا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها
سرعان ما فويت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضاة - هجرت اليمن
واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق (١) .

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من
بلاد العراق ، من بلدة يقال لها « أر » على الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من
الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة
إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد (٢) .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران ، ومنها إلى فلسطين
فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها (٣) وقدم مرة
إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيدا وسوءاً بزوجته سارة ولكن الله رد كيده في
نحره وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخذها ابنته (٤) هاجر ؛ اعترافاً
بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم (٥) .

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ١١ - ١٣ وقلب جزيرة
العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ - واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها
وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجح عندنا في هذا الباب من حيث الدليل .

(٢) تفهيم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٣) تفهيم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٤) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن تحقق الكاتب العلامة القاضي محمد سليمان المنصور فرى أنها
كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون . انظر رحمة للعالمين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٥) نفس المصدر ٢ / ٣٤ وانظر في تفصيل القصة : صحيح البخاري ١ / ٤٧٤ .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى أُلجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعها عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتاً لهما وبلاغاً إلى حين . والقصة معروفة بطولها^(١) .

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، أنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك^(٢) .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطلع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتنال هذا الأمر ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . ونادينا أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك لنجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾^(٣) .

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق ، لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً^(٤) . وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجته امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا الزواج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالها ، فكشفت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهي ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم^(٥) .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا الزواج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ١ / ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٧٥ .

(٣) الآيات ١٠٣ - ١٠٧ من سورة الصافات . (٤) ح ١ / ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠

بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقى إسماعيل وهو يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالولد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، فلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، الولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة ورفعوا قواعدها ، وأذن إبراهيم بالناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضااض اثني عشر ولداً ذكراً^(١) وهم :

نابت أو بنالوط ، قيذار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشماح ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان ، وتشعبت من هؤلاء اثنا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيذار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من أطرافها ، واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقبضوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار^(٢) .

وأما قيذار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادى والعشرين فى سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسابون فلا يتجاوزوه^(٣) . وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب إلى فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق^(٤) .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار - قيل لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعنزة ، عبد

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ (٢) انظر تاريخ أرض ٢/٧٨ إلى ٨٦

(٣) انظر الطبرى ١٩١/٢ - ١٩٤ والأعلام ٦/٥ (٤) رحمة للعالمين ٢/١٤٠.١٦٠.١٧٠.١٨٠.١٩٠.٢٠٠

القيس ، وابنا وائل - بكر ، وتغلب - وحنيفة وغيرها .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغنى بن أعصر .

ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمية ، وبطون كنانة بن خزيمية ، ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل ثنتي ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، ومخزوم ، وتيمم ، وزهرة وبطون قصي بن كلاب ، وهى عبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن هاشم عليه السلام (١) .

قال عليه السلام : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشنا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاى من بنى هاشم » (٢) .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله عليه السلام : « إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » (٣) .

ولما تكاثرت أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب ، متبعين مواقع القطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن صععب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر ، قسبة اليمامة . وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤ ، ١٥ .

(٢) رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبى عليه السلام ٢٤٥ / ٢ والترمدى ٢٠١ / ٢

(٣) رواه الترمذى باب ما جاء فى فضل النبى عليه السلام ١٥ / ٢ - ١٦ .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تسكن بكرا . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الجرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس ، وهي على الجادة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار يحتر من طيء ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وبقى بتهامة بطون من كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون من قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم (١) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٥/١ - ١٦

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام ؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر ، لهم مال للملوك من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن ، وملوك آل غسان ، وملوك الحيرة ، وماعدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن :

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم في حضريات « أور » بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد . ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

(١) القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق . م ، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ«مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خريبة » وفي زمنوم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب ، والذي كان له شأن كبير في تاريخ اليمن ، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل جزيرة العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ ق . م إلى سنة ١١٥ ق . م وفي هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلاً من صنعاء إلى جانبها الشرقي .

(٣) منذ سنة ١١٥ ق . م إلى سنة ٣٠٠ م ، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدلا من بلدة « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » وفي هذا العهد بدأ فيه السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير ؛ لبسط سيطرة

الأنباط في شمال الحجاز أولاً ، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ثانياً ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً . وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام إلى اليمن . وفي هذا العهد توالت عليهم الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات ، والحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم . ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن ، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م ، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلثات في سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠ م أو ٤٥١ م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفي سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً . ولما أبوا خذ لهم الأخدود وألقاهم في النيران ، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ الآيات ، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة امبراطور الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا الأحباش ، وهياؤا لهم الأسطول البحري ، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م ، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة ، وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل .

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس ، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥ م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري ، واتخذوه ملكاً لهم ، وكان معد يكرب أبقى معه جمعا من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن ، وولى كسرى عاملاً فارسياً على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن . (١)

(١) انظر في تفصيل ذلك : تفهيم القرآن ٤ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وتاريخ أرض القرآن ج ١ / من ص ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفي تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

الملك بالحيرة :

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩ ق . م) ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق . م فهزم ملكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م . وفى عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءا من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فراحموهم حتى سكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس فى عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سببا فى رحيل قضاة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم بلاد العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كانوا يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اضطنعتهم ملوك الرومان ، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة عمرو بن عدى بن لفر اللخمي ، أول ملوك اللخمين - فى عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ ابن فيروز ، وفى عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء - يدعو إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جدا ، فقتل المزدك وكثيرا ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث ابن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان ،

فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وأمره أن يرسل إلي هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ماعنده، فأبى ذلك هانئ حمية ، وأذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازية كسرى وكتائبه فى موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذى قار ، وانتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكما فارسيا ، وفى سنة ٦٣٢ م عاد الملك إلى الحيرة ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين (١) .

الملك بالشام

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكا ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريبا ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكا على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تنزى إلى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالا للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢) .

الإمارة بالحجاز :

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته (٣) . وتوفى وله ١٣٧ سنة (٤) . ثم ولى اثنان من أبنائه نابت ثم قيدار ، ويقال العكس ، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدهما مضاض بن عمرو الجرهمى ، فانتقلت زعامة مكة إلى جدهم ، وظلت فى

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، وأرض القرآن ٢ / ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧

(٤) سفر التكوين ٧ : ٢٥

أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء (١).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلا لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهميا (٢).

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق. م)، وذهب برمياء النبي بمعد إلى الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهممة، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزارا (٣).

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضافت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة (٤)، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين، ويثير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك فقامت بمعونة من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها، في أواسط القرن الثاني للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بشر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن اسحاق: فخرج عمرو ابن الحارث بن مضاض الجرهمي (٥) بغزالي الكعبة (٦)، وبحجر الركن الأسود فدفنها في بشر زمزم، وانطلقت هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكتها حزنا شديدا، وفي ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنا قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم في مكة واحدا وعشرين قرنا تقريبا، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنا. واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠-٢٣٧، وابن هشام ١/١١١، وذكر الن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠-٢٣٧ (٣) رحمة للعالمين ٤٨/٢ (٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١.

(٥) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام.

(٦) قال المسعودي: وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أمولا في صدر الزمان وحواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وحواهر وسيونا وذهبا كثيرا فقلده (عمرو) في بشر زمزم أهد انظر مروج الذهب ١/٢٠٥.